الشعر في الإسلام
(إعادة تقويم)

سعيدي المولودي

إن كثيرا من المعطيات و الإشارات و الأخبار التاريخية الأدبية المتصلة بموضوع الشعر ودوره في الإسلام، في تقديرنا، تحتاج إلى إعادة تصنيف وترتيب، وإلى فحص كثير من مقتضياتها ومتضمناتها، إذ أن جملة من تأويلات غير سليمة قد طالتها، ووظفت، في كثير من الأحيان، توظيفا " موجها"، ومغرضا، يتعارض مع كثير من الحقائق الأدبية والتاريخية والثقافية العربية الإسلامية .وهو ما يحملنا على القول إن الشعر كان ضحية استعداء كثير من النصوص الدينية عليه، ليصنف كفن منبوذ، ويحيا في سياق دائرة مغلقة،عاجز عن أن يثبت فيها فعاليته، وتفرض عليه أن يحيا داخل منطقة المحظورات أو المحرمات.

وبالوقوف على العادات الثقافية العربية السائدة إبان بزوغ الإسلام في القرن السابع الميلادي، نستطيع القول إن الإسلام كظاهرة دينية، ظهر في الجزيرة العربية ضمن الشروط الحضارية التاريخية المعروفة، حيث كان العرب محاطين بتيارات دينية وثقافية متعددة ومتنوعة، وكانت جزيرتهم حقلا لتصارع وتجاذب كثير من المعتقدات والأديان، مما يعني أن الدين أوالتدين، لم يكن ظاهرة غريبة عنهم، مثلما لم يكن غريبا عن عاداتهم الثقافية وتجلياتها المتباينة.

وللضرورات التاريخية والاجتماعية والحضارية، خاض الإسلام جدالا كبيرا من أجل الاستقطاب الواسع للعرب، وكان عليه من الوجهة الثقافية تحديد بعض منطلقاته، ومرتكزاته الفكرية والدينية، التي ينبغي استيعابها خارج أو ضمن نسق الطقوس والعادات الثقافية السائدة، وهو م ا فسح له المجال لشن حرب ثقافية على الثقافات المناهضة، أو المحافظة ومحاولة استئصال روافدها . وكان أبرز، بل أخطر المفاهيم الثقافية الدينية التي استوجبت التحديد في هذا المضمار، هو مفهوم "النبوة"، وفق المنظور الجديد الذي يطرحه الإسلام، ويسعى إلى ترسيخه، وتوطيده . وكان هذا التحديد حتميا لأن الجزيرة العربية، قبل النبي محمد، شهدت الكثير من الأنبياء أو المتنبئين، كما عرفت موجة من الدعوات الدينية

التي ترسخ في ظلها مفهوم عام أو خاص للنبوة، وللنبي .وكان عمليا أن يؤسس الإسلام مدلوله الخاص لهذا المفهوم، كمحور انطلاقاته، ليكون أداة للإقناع من جانب، والتميز من جانب آخر.

وفعلا صاغ الإسلام مفهومه للنبوة، التي أكد أنها متصلة بالغيب، أو الله، مثلما أكد أنها صفة تتصل بالبشر،أي أنه يؤكد بمعنى أدق نبوة الإنسان، في مقابل الاعتقاد الذي كان سائدا، وكان يقضي بأن النبوة لاتكون للبشر، وإنما للأرواح والملائكة أي الكائنات الغير الطبيعية، أو الاستثنائية (1)، وتبعا لهذا التصور فإن ذات النبي بشرية، ولكنها ذات مصطفاة، ومتصلة بالغيب، ومتسامية، أو معصومة ، وتمتاز علاوة على هذا بالوحي، حيث الوحي هو القطب الرئيسي للنبوة.

فالنبي، إذن، بشر، لكنه يستمد " سلطته" و " هويته" من علاقته بالغيب أو الله، و "مدده إلهي" على حد تعبير ابن خلدون (2)وعلى هذا الأساس يرتفع (النبوة:الارتفاع عن الأرض)، أو يسمو، بفضل هذه الخاصية الربانية، ويتقدس ثقافيا واجتماعيا وسياسيا . غير أن هذا المفهوم كان يصطدم أو يتداخل مع مفاهيم أخرى لها علاقة تاريخية وطيدة بالطقس الثقافي والديني لدى العرب، إذ كان دور النبي يتماس أو يتقاطع مع نماذج " ثقافية" أخرى في مقدمتها الكاهن والساحر والشاعر أيضا، وكان سائدا أن هذه النماذج ـــ كحال النبي ـــ تستمد هويتها وسلطتها المعرفية والرمزية من " الغيب"، وغالبا ما تتوفر لهم جميعا مواصفات مشتركة، وأدوار متقاربة، أو موحدة.

وكان هذا عاملا حاسما في اعتماد الإسلام مبدأ التمييز بشكل أكثر تدقيقا، ليضع النبي، والنبوة خارج مجال الالتقاء أو الاشتباك بهذه المفاهيم، وأكد تصوره في هذا الباب، والذي ينبني على أساس أن كل هذه النماذج الثقافية، فعلا ذات صلة بالقوى الغيبية، لكن النبي يختص من بينها بأنه مهيأ للمعرفة الربانية، ومدده من الله، بينما الكاهن والساحر والشاعر يستمدون سلطتهم من قوة غيبية أخرى هي الشيطان.أضفى الإسلام طابعه الخاص على هذه النماذج الثقافية، حيث ينأى بمفهوم النبوة عن الالتصاق أو الاختلاط بالكهانة أو السحر أو الشعر، وميز عمليا بين ما يمكن أن نسميه النموذج الثقافي (الإنساني) الإلهي، والذي يجسده النبي، والنموذج الثقافي الشيطاني الذي يجسده الكاهن أو الساحر أو الشاعر، بدرجات مختلفة وعلى مستويات متباينة . ويعني هذا على صعيد آخر أن هذه النماذج تتلقى " معرفتها"من قوى مختلفة، ومتعارضة . ولذلك كان من البديهي أن تختلف طبيعة كل " معرفة" باختلاف المصدر. وهذه المعرفة هي التي ستأخذ موازيا دلاليا جديدا هو "الوحي". والوحي على هذا الأساس أداة إدراك وعرفان، وعلم أيضا (أصل الوحي في اللغة كلها : إعلام في خفاء...)لكنه يصبح في حالة النبي كلام الله، أو إعلام الله أسره على الخلق وخص به النبي ".3. وفي

حالات الكاهن أو الساحر أو الشاعر كلام أو علم الشياطين، ذلك العلم الذي يتم استراقه من عالم الغيبوها نجد أنفسنا أمام نوعين من الوحي ، الوحي الرباني، والوحي الشيطاني، أو قل العلم الرباني والعلم الشيطاني.

هذا المفهوم الجديد " الوحي" الموازي للعلم، اصطدم أيضا بمفاهيم أخرى سائدة لدلالات العلم في الثقافة العربية، حيث الشعر علم، (شعر به: علم..)، والسحر علم، (الساحر: العالم..)، والكهانة علمللعرب(تسمي كل من يتعاطى علما دقيقا كاهنا ..).4.علاوة على مظاهر التداخلات والتقاطعات القائمة بين الشاعر والساحر من جهة، وبين النبي والشاعر والكاهن من جهة أخرى، نظرا لقدرة كل منهم على لإتيان بما لم تألفه أسماع الناس وأفهامهم، وبراعتهم في استمالة القلوب .ولذلك انخرط القرآن منذ بدايات الدعوة الإسلامية في جدل وصراع حاد بهدف تأكيد خصوصيته كوحي إلهي، أي كعلم متميز، إذ هو كلام الله، بينما العلوم الأخرى علوم شيطانية.

وهذا التصور في الحقيقة ليس تصورا إسلاميا محضا، بل هو تصور كان معروفا لدى العرب وغيرهم من الأمم الق ديمة، إذ أنهم كانوا يعتقدون، مثلا، أن الشعراء هم أشخاص مأخوذون من قبل الشياطين، ولا تتكلم إلا بصوتها، وهي تلهمها القول أو العلم، كما أن الشعر لديهم يلتقي مع السحر والكهانة، لأنها جميعها علوم ذات تأثيرات مدهشة لا يمكن أن يمارسها إلا أفراد تتوفر لهم شروط فقعوفائقة، لا تكون إلا من قبل الشياطين .إضافة إلى أن الشعر له جذوره الثابتة في صلب الممارسة السحرية، بل إن أبرز أغراض الشعر العربي القديم التقليدية، وهو الهجاء له صلة وثيقة بفن السحر " فالشاعر الهاجي هو أقرب إلى الساحر ".5. وثمة إشارات عديدة تفيد أن الهجاء في أصله طقس سحري، الهدف منه إلحاق الأذى بالمهجو، وإذا كان "السحر كلمات تقال فيصيب شرها المسحور ..".6. فإن هذا التحديد بالذات ينطبق انطباقا كليا على الهجاء.

ومن المفارقات أن الإسلام في صراعه مع الثقافات المناهضة في بدايات ا لدعوة، وظف بالذات شعر أو هو سحر الهجاء، سلاحا فعالا في مواجهة معارضيه، ؛حيث غدا أشد من " رشق النبل"، و" من وقع السهام في غبش الظلام ،"بل إن روح القدس (جبريل)، تدخل لتأييد هذا الاختيار ودعمه، ومثلما نفث في روع النبي، نفث في روع حسان شعرا للذود عن رسول الله.

على كل، وتبعا للتصور الذي أسسه الإسلام، فإن القاسم المشترك بين الكهانة والسحر والشعر، هو تضليل الوعي البشري، وتحريفه عن مواضيع إدراكه، والسيطرة بذلك على عقول الناس،

أي أنها بمعنى آخر تجسيد لصيغة " الوعي الزائفوالإدراك المشوه للواقع، في مقابل الوحي الذي يحتوي، أو يقود إلى العلم الكلي، والمعرفة اليقينية، وإلى الحقيقة المطلقة.

وحين نتأمل الآيات القرآنية التي طالها التأويل المتحيز، ووظفت بشكل أو آخر ضد الشعر والشعراء ، فإنها في حقيقة الأمر لا تخرج عن سياق التأكيد أن النص القرآني هو وحي أو كلام إلهي، وليس وحيا شيطانيا، وأن النبي بالمقابل ليس شاعرا ولا كاهنا ولا ساحرا، وإنما رسول يوحى إليه، ومكلف بتبليغ ما يوحى إليه، وليس فيما يقوله شيء منه أو من فكره الخاص، ولا يخضع سياقها على الإطلاق لجدل الحلال والحرام، كما توهم الكثيرون.

وحتى الآية " ..والشعراء يتبعهم ا لغاوون" التي ذهب أغلب المفسرين إلى أنها تعلن حظر الشعر، لا ينبغي في واقع الأمر إلا أن توضع في هذا السياق، سياقها العملي والأصلي، فالشعراء بحكم أن مددهم شيطاني، لا يجسدون،من منظور الإسلام ، غير مظاهر العي المضلل (الغواية)، وعلمهم تبعا لذلك غير حامل للحقيقة ة، ومخالف لها، على عكس الأنبياء، والنبوة التي من خواصها الصدق، ولا يعتريها الكذب بحال . وهو ما يعني أن دلالاتها تصب في مجرى الآيات التي ساهمت في بداية الدعوة في حملة الإقناع ومواجهة الثقافة المناهضة للدعوة، ولا تحمل حكما ضد الشعر والشعراء، وإنما تقرر عادة ثقافية شائدة، حاول القرآن تسخير مظاهرها ليوظفها في معاركه الثقافية والدينية لصالحه .وقد طرح الفخر الرازي هذا البعدلالات الآية في تفسيره، فقال ": .اعلم أن الكفار لما قالوا : لم لا يجوز أن يقال إن الشياطين تترل بالقرآن على محمد، كما أنهم يترلون بالكهانة على الكهان، وبالشعر على الشعراء ؟ ثم إنه سبحانه وتعالى فرق بين محمد وبين الكهنة، فذكر هاهنا ما يدل على الفرق بينه عليه السلام وبين الشعراء ن وذلك أن الشعراء يتبعهم الغاوون أي الضالون ... وذلك يدل على أنهم لا يطلبون بشعرهم الحق، ولا الصدق، بخلاف أمر محمد، فإنه من أول أمره إلى آخره بقي على طريق واحد، هو الدعوة إلى الله تعالى والترغيب في الآخرة والإعراض عن الدنيا..."7.

وجوهر المسألة كما هو واضح أن القرآن حصر العلم في الوحي، وفرض مجال الإدراك والتعلم للإنسان عن طريقه وحده، حيث المفروض أن الإنسان لن يدرك أو يعي وجوده إلا من خلال إيمانه بالوحي، أما خارج دائرة الوحي، فإن كل المعارف البشرية معرضة للنقص، وليست إلا طريقا للغواية والضلال. وعلى هذا المستوى يتم التعامل مع هذه المعارف أو العلوم من زاوية اعتبار دورها الوظيفي، أي آثارها الفكرية والثقافية والاجتماعية، وعلى هذا الأساس يمكن أن نفهم مثلا موقف الإسلام من الأصنام أو الأوثان، ليس باعتبارها فرعا من فروع الفنون التشكيلية، وإنما لأنها ممارسات شيطانية،

وكثير من الإشارات تحيل إلى أن إبليس الأصنام لأهل الجاهلية فعبدوها .8.وهي بالتالي تحمل رؤية يعارضها الإسلام، وكذلك موقفه من السحر إذ أن إدانته تمت على أساس هذا الدور، حيث استثني السحر الذي وظفه بعض الأنبياء كمعجزة، وفي الشعر كذلك استثني الشعر الناطق بالإيمان والعمل الصالح.

والحصيلة أن مسألة الشعر في الإسلام أبعد من أن نخضعها لثنائية الحلال والحرام، وأقرب إلى جدل التنازع حول الاختصاص، وحول أحقية امتلاك المعرفة أو مدى التعبير عن الحقيقة أو العلم الكلي، ولا نعتقد أن العرب أول الأمر نظروا إلى القرآن على أنه شعر للتشابه الإيقاعي بين نظاميهما، بل لأن القرآن اقتحم ميادين أو حقولا كانت بصورة أو أخرى مجالا للشعر وفضاء من فضاءاته. ومن هذا البعد عمل الإسلام بكل قوة لأن يمنح النص القرآني صفته ككلام إلهي، ويمنح كذلك النبي مكانة ثقافية متميزة، ويحدد له دوره الديني والاجتماعي والسياسي، في مقابل إلغاء أي دور ثقافي محتمل للنماذج الثقافية الأخرى (الكاهن والساحر والشاعر)، وإبعاد الناس عن تأثيراتهم وسلطتهم.

ولذلك فإن كثيرا من القضايا المطروحة في باب ما عرف بقضية الشعر والإسلام، في ما يبدو، هي قضايا فكرية وأدبية مرتبطة بمراحل متأخرة من تاريخ تطور الأدب والنقد العربيين، ويمكن أن تكون ذات صلة بظهور الموازنات، واتهام بعض الشعراء في دينهم، ولا تعكس في الواقع مرحلة ظهور الإسلام أو ما يليها، خاصة أن الكتابات النقدية العربية الأولى لم تلتفت إلى هذه القضايا، (ابن سلام الجمحي، ابن قتيبة..)، مما يعني أنها لم تكن مطروحة على الصعيد النقدي.

الهوامش:

1ـــ انظر: خليل أحمد خليل:جدلية القرآن. دار الطليعة، بيروت. الطبعة الأولى.1977. ص119

2 ـــ ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون دار القلم بيروت. الطبعة الرابعة.1981.ص 497.

3 ـــ ابن منظور: لسان العرب. دار صادر. بيروت.

4 ـــ المصدر نفسه.

5 ـــ انظر :أحمد إسماعيل النعيمي: الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام. دار سينا للنشر. الطبعة الأولى.1995.ص69.

6 ـــ عن أحمد إسماعيل النعيمي: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

7 ـــ الفخر الرازي: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب. دار الفكر بيروت. الطبعة الأولى.1981.(المجلد الثاني عشر) ص175.

8 ـــ ابن منظور: لسان العرب.(انظر على سبيل المثال: يعوق، وسواع.).